أولئك الذين تعودوا تصنيف ميشيل فوكو في التيار البنيوي من دون تمييز أو تخصيص. وسيتبين للقارئ، مدى اختلاف وجهة نظر فوكو في اللغة عن الطرح البنيوي أولاً ومدى نقده كذلك لطرح شومسكي رغم اتفاقهما كما قلنا في نقد اللسانيات البنيوية.

أكد فوكو على اهمية اللسانيات البنيوية في تشكيل المنعطف اللغوي، ومحاولته الخروج منه عبر مفهومه للخطاب، كما سنبيّن ذلك في الفصل القادم. يقول: «إن أهمية الألسنية وتطبيقها على معرفة الإنسان تعيد بإلحاح لغزي طرح كينونة اللغة، التي سنرى وأن رأينا مدى ارتباطها بالإشكاليات الأساسية في ثقافتنا. وهي إشكالية يزيدها ثقلاً الاستعمال المتزايد للمقولات اللسانية، إذ يجب من الآن فصاعداً التساؤل عما يجب أن تكون عليه حتى تبني ما لم يكن في ذاته كلاماً ولا خطاباً من أجل أن تتمفصل على الأشكال البحتة للمعرفة»[1].

خصّ ميشيل فوكو تحليل الألسنية في كتابه **الكلمات والاشياء**، وبيّن ان فقه اللغة والألسنية والأدب وجهود نيتشه ومالارميه في العصر الحديث، بالإضافة إلى تقنيات التأويل عند ماركس وفرويد ونيتشه والفلسفة الظواهرية والمنطق الرمزي، تؤكد العودة القوية إلى اللغة.

يقول فوكو: «تدّعي الأولى استنطاق الكلام للكشف عما يقال خلفه ومن دونه، وتدّعي الثانية السيطرة على أي كلام محتمل، وإخضاعه للقوانين التي تنص على ما يمكن قوله. فأضحى التأويل والتشكيل الشكلين الأولين للتحليل في عصرنا. والحق يقال، إننا لا نعرف غيرهما. لكن هل نعرف علاقات التفسير والتشكيل؟ وهل نحن قادرون على الإشراف والسيطرة عليهما؟ ان التمييز بين التأويل والتشكيل يلح اليوم ويسيطر علينا. لكنه لا يتصف بما يكفي من الدقة، والخيار الذي يفرضه لا يغوص إلى حد كاف في ثقافتنا. وفرعاه هذان (أي التأويل والتشكيل) هما من المعاصرة، بحيث لا نتمكن حتى من الحكم على ان الخيار المطروح بسيط، أو انه يدعونا إلى الاختيار بين الماضي الذي كان يؤمن بالمعنى وبين الحاضر (المستقبل) الذي اكتشف الدال. وفي الحقيقة، يشكل هذان الفرعان تقنيتين متضايفتين، ذلك ان اللغة التي نشأت على عتبة العصر الحديث شكلت لهما الأرضية المشتركة التي انطلقت منها إمكانية وجودهما»[2]. وهو ما تلخصه عبارة "المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة"، التي صاغها الفيلسوف الامريكي ريتشارد رورتي عام ١٩٦٧.

... في ... باسم لغة عالمية. وإذا لم يكتب النجاح بعد للغة العالمية، فكذلك الحال بالنسبة للنحو العالمي. الا ان ما يجب التأكيد عليه هو أن شومسكي، وبناء على هذه المبادئ العقلية، استطاع نقد النموذج البنيوي، لان الالسنية البنيوية تدرس المستوى السطحي للكلام، ولا تبحث في المستوى العميق، كما لا تهتم بالتحول. «فالألسنية البنائية لا تحاول تفسير الكلام بل لا تبحث في مسار عملية تكونه ولا في البنها الكامنة ضمن المظهر الإبداعي في استعمال اللغة. فالمنهج الوصفي التطبيقي لا يفي بالهدف العلمي للدراسة الألسنية»(٢).

ومن هنا نستطيع القول إن الألسنية البنيوية قد بلغت في الواقع حدود قدرتها من حيث هي منهجية وصفية. ولكن ثمة قضايا ومشكلات لغوية عديدة بقيت من دون معالجة بصورة وافية. ولا بد والحالة هذه، من اعتماد المبادئ التفسيرية للتوصل إلى رؤية آلية اللغة وارتباطها بالفكر الإنساني.

يسمح هذا النقد الذي قدمه شومسكي للسانيات البنيوية، بأن نتعرف على الموقف المعرفي للألسنية البنيوية، وهو ما يظهر في عملية انشطار الجسم اللغوي وانقسامه إلى ثنائيات أو تقابلات متعددة من مثل اللغة والكلام.. الخ. إن هذا الانشطار، كما يقول أحد الباحثين، هو الذي «سمح ببناء خطاب حول مجال اللغة، ضيق ومحدود أساساً كموضوع للمعرفة... كما أن لعملية الانشطار هذه نتيجة مزدوجة: انغلاق أمام أي تدخل للعالم الخارجي، وتحليل ما هو داخلي على أساس نسقي.. أخيراً بإخضاع دي سوسير المنهج التعاقبي للمنهج التزامني، ينفي المشكلية الوراثية - التاريخانية، مبتعداً عن التفكير في العوامل الزمنية والذاتية التي قد تؤثر على اللغة»(٣).

ثالثاً - بين شومسكي وميشيل فوكو

إن ما دعانا إلى تخصيص عنصر لمناقشة موضوع اللغة بين شومسكي وبين فوكو، هو نقدهما معاً لنموذج اللسانيات البنيوية. ولعل هذا يبدو غريباً بعض الشيء بالنسبة إلى

N. Chomsky, *Reflexion sur le langage*. Maspero, Paris. 1977, pp. 40-41.

ميشال زكريا، الألسنية - علم اللغة الحديث، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٩ - ٢٦٨.

جورج مورليان، «الألسنية: بحثاً عن وجهي دي سوسير»، مجلة دراسات عربية (مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية، تصدر شهرياً عن دار الطليعة، بيروت)، العدد ٤، السنة ١٩ (شباط ١٩٨٣)، ص ٨٥.